المُوَازَنَة

بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن

للإمام العلامة ابن قيم الجوزية

(٦٩١-٧٥١هـ)

دراسة وتحقيق

مجدي فتحي السيد

كيفية الخشوع والخضوع في الصلاة
أسرار ومعاني الفاتحة
حال مستمع الغناء

أسرار التسبيح والتحميد
حكم الركوع والسجود
مقارنة بين سماع الآيات والأبيات

دار الصحابة للتراث بطنطا

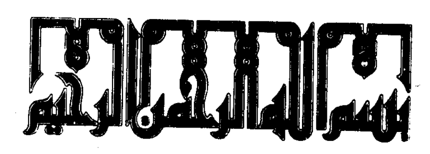
كتاب قد حوى دررا بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيها
حقوق الطبع محفوظة
للناشر

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتحقيق والتوزيع
شارع المديرية - امام محطة بنزين التعاون
ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

إن شئت أن تحظى بجنة ربنا	وتفوز بالفضل الكبير الخالد
فانهض لفعل الخير واطرق بابه	تجد الإعانة من إلٰه ماجد
واعكف على هذا الكتاب فإنه	جمع الفضائل جمع فذ ناقد
يهدى إليك كلام أفضل مرسل	فيما يقرب من رضاء الواحد
فأدم قراءته بقلب خالص	وادع لكتابه وكل مساعد


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله :

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾(*) ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾(**) .

﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا** ﴾(***) .

---

* سورة آل عمران : ١٠٢ .
** سورة النساء : ١ .
*** سورة الأحزاب : ٧٠ - ٧١ .

بين يدى الكتاب

الحمد لله وكفى

وصلاة وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد :

لعلَّ من أخطر الأمور التى تشغل ذهن المرء المسلم عند دخوله إلى صلاته ، وبعد خروجه منها : مسألة الخشوع فى الصلاة .

وفى هذا الكتاب نرى الإمام ابن القيم السلفى يعلمنا من الأسرار التى إن وفقنا إلى الأخذ بها ، وصلنا إلى مبتغانا ، وحظينا برحمة الله ورضوانه .

وفى هذا الكتاب نعرف أصناف الناس عند نعم الله ، وأحوالهم حين الغفلة واليقظة .

وفى هذا الكتاب نتعرف على أنواع الطاهرة ، باطنة وظاهرة .

وفى هذا الكتاب نتعلم أسرار التسبيح ، وأسرار التحميد ، ومعانى الفاتحة .

وفى هذا الكتاب كيفية خضوع القلب والبدن لله رب العالمين .

وفى هذا الكتاب نرى أحوال الناس فى الصلاة .

وفى هذا الكتاب نشعر بتفاهة وحقارة سماع غير القرآن من اللهو والعبث .

وفى هذا الكتاب نتذوق الفرق بين ذوق الآيات ، وذوق الأبيات .

وفى هذا الكتاب نتعرف على هدى السلف الصالح ، وكيف كان ذوقهم المتصل بالله تعالى ، وذوق المتأخرين ، وانحرافه عن الهدى والصراط المستقيم .

من أجل كل تلك الفوائد ، ومن أجل كل هذه المنافع ، أحببت تحقيـق هذا الكتاب ، لكي يظهر إلى عالم النور بعد مرور مئات السنين على وفاة مؤلفه رحمه الله .

وأخــيراً .....

مع صفحات من تراثنا النفيس أترككم ، ومع كلام السلف الصالح الذى فيه خير الدنيا والآخرة أترككم على أملٍ بلقاءٍ جديدٍ مع كتابٍ جديد لسلفنا الصالح .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ..

والحمد لله رب العالمين

أبومريم/ مجدى فتحى السيد إبراهيم

عمــلى فى الكتــاب

سرت فى تحقيقى لهذا الكتاب على النحو التالى :-

١ - تم نسخ الكتاب من مخطوطته الوحيدة التى عثرت عليها فى دار الكتب المصرية .

٢ - قمت بتخريج ما فى الكتاب من أحاديث نبوية ، مع إبراز درجة الحديث ، ما أمكن إلى ذلك سبيلاً ، مستعيناً بأقوال أهل الجرح والتعديل ، ولقد كانت أحاديث الكتاب قليلة جداً .

٣ - عزوت الآيات التى بالكتاب إلى سورها ، مع ذكر رقم الآيات .

٤ - قدمت للكتاب بمقدمة عن الكتاب ومؤلفه ، والمخطوط وتوثيقه .

٥ - وضعت العناوين الداخلية تيسيراً على القارىء للوصول إلى الفائدة المرجوة .

وأخيراً أرجو من الله أن يمنحنى القدرة والاستطاعة على إخراج كل ما هو طيب ونفيس من تراثنا النفيس ، والله من وراء القصد ، ومن الله العون والسداد .

أبومريم/ مجدى فتحى السيد
طنــطا



الترجمة للمؤلف

١) نسبه ونشأته :-

هو الإمام المحقق الحافظ الأصولى ، الفقيه النحوى صاحب القلم السيَّال ، والتصانيف النافعة الذائعة ، شمس الدين أبوعبدالله ، محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى ، المشهور بـ : ابن قيم الجوزية .

ونسبه الجوزية إلى المدرسة التى أنشأهامحيى الدين أبوالمحاسن يوسف بن عبدالرحمن بن على بن الجوزى ، المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، لأن أباه كان قيِّماً عليها .

وُلد فى بيت علمٍ وصلاح ، فى السابع من صفر سنة ٦٩١هـ فى قرية زرع من قرى حوران تبعد عن مدينة دمشق خمسة وخمسين ميلاً جنوب شرقها ، وقد تحوَّل إلى دمشق .

٢) شيوخه الذين أخذ عنهم :-

● أخذ علم العربية عن ابن أبى الفتح البعلى ، وسمع الحديث من الشهاب النابلسى ، وابن عبدالدائم ، وعيسى المطعم ، وإسماعيل بن مكتوم .

●● تلقى علمى الأصول والفقه على الشيخ صفى الدين الهندى ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ إسماعيل بن محمد الحرانى .

●●● أكثر الشيوخ الذين تتلمذ عليهم إمامنا ابن القيم شيخ الإسلام العلامة ابن تيمية ، وأخذ ابن القيم يدعو لأفكاره وآرائه العلمية ، حتى سُجن وعُذب من أجل ذلك .

٣) تلاميذه الذين تلقوا عنه :-

استفاد من علمه جمٌّ غفير ، سطع منهم العديد ، منهم : الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلى صاحب التصانيف الحسنة ، المتوفى سنة ٧٩٥هـ ، والعماد ابن كثير

علامة وقته ، المتوفى سنة ٧٧٤هـ ، وعمدة المحدثين الحافظ ابن عبدالهادى ، المتوفى سنة ٧٤٤هـ ، وشمس الدين محمد بن عبدالقادر النابلسى ، المتوفى سنة ٧٩٧هـ ، وغيرهم كثير .

٤) ثنـاء العلماء والحفـاظ عليه :-

قال العلامة ابن رجب الحنبلى رحمه الله :

« كان عارفاً بالتفسير لايُجارى فيه ، وبأُصول الدين ، وإليه فيهما المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لايُلحق فى ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية ، وله فيها اليد الطُّولى ، وبعلم الكلام .

وكان - رحمه الله - ذا عبادة وتجهد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى وتأله ، ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة والإنابة ، والافتقار إلى الله ، لم أشاهد مثله فى ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أعرف بمعانى القرآن والسنة ، وحقائق الإيمان ، وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر فى معناه مثله » .

●● وقال شيخ المحدثين الإمام الذهبى رحمه الله :-

« عُنِىَ بالحديث ومتونه ، وكان يشتغل فى الفقه ، ويجيد تقريره ، وبالنحو ويدريه ، وفى الأصلين ، وتصدر للاشتغال ، ونشر العلم » .

●●● وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله :-

« برع فى علوم متعددة لاسيما علم التفسير ، والحديث والأصلين ، فصار فريداً فى بابه فى فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً ، وكثرة الابتهال ، ولاأعرف فى هذا العالم فى زماننا أكثر عبادة منه » .

●●●● وقال العلامة ابن ناصر الدمشقى رحمه الله :-

« كان ذا فنون من العلوم ، وخاصة الأُصول والتفسير من المنطوق والمفهوم » .

● وقال، إمام المحدثين وفخرهم الحافظ المزى رحمه الله :-

« هو فى هذا الزمان كابن خزيمة فى زمانه »

● وقال القاضى برهان الدين الزرعى رحمه الله :-

« ما تحت أديم السماء أوسع منه علماً »

●● وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله :-

« كان جرىء الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف »

●●● وقال العلامة الشوكانى رحمه الله :-

« كان متقيداً بالأدلة الصحيحة ، معجباً بالعمل بها ، غير معوِّل على الرأى ، صادعاً بالحق ، لايحابى فيه أحداً »

ومن خلال أقوال أهل العلم التى سردناها نشعر بقدر ذلك العالم الربانى ، والعلامة السلفى ، ابن القيم رحمه الله .

٥) مصنفـاته العلميـــة :-

ألف رحمه الله تصانيف كثيرة ، طُبع منها الكثير ، ولازال البعض منها مدفوناً فى خزائن المخطوطات .

فمن كتبه المطبوعة فى الحديث والسيرة : تهذيب سنن أبى داود ، وزاد المعاد ، وفى العقيدة : اجتماع الجيوش ، الصواعق المرسلة ، شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر ، وهداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى .

ومن كتبه فى الرقائق والآداب : عدة الصابرين ، والداء والدواء ، والوابل الصيب ، ومن كتبه فى الفقه وأصوله : إعلام الموقعين ، والطرق الحكمية ، أحكام أهل الذمة ، وفى اللغة : بدائع الفوائد ، والتبيان فى أقسام القرآن .

وهذا قليل من تصانيفه التى نفع الله بها ما لايحصى ولا يعد من الخلائق .

٦) وفاتـــــه :-

توفى – رحمه الله – وقت عشاء الآخرة فى ليلة الخميس فى الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٧٥١هـ .

وصلى عليه بجامع دمشق الكبير ، فرحمه الله رحمة واسعة ، وأدخله فسيح جناته ، وأسكب ضريحه رحماته .

ولمزيدٍ من التفصيل عليك بالرجوع إلى المراجع والمصادر التالية :-

١ – ذيل طبقات الحنابلة : (٤٤٧/٢ ، ٤٥٢) .
٢ – البداية والنهاية : (١٣٤/١٤ ، ٢٣٥) .
٣ – الدرر الكامنة : (٢١/٤ ، ٢٣) .
٤ – الوافى بالوفيات : (٢٧٠/٢ ، ٢٧٢) .
٥ – شذرات الذهب : (١٦٨/٦ ، ١٧٠) .
٦ – الرد الوافر :(ص/٦٨، ٦٩) .
٧ – بغية الوعـاة : (٦٢/١ ، ٦٣) .
٨ – البدر الطالع : (١٤٣/٢) .
٩ – النجوم الزاهرة : (٢٤٩/١٠) .
١٠ – كشف الظنون : (٨٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٦٨ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ، ٣٤١) .
١١ – إيضاح المكنون (٤٧١/١ ، ٤٢٢) ، (٥٤٠/٢) .
١٢ – هدية العارفين : (١٥٨/٢ ، ١٥٩) .

١٣ - الأعلام للزركلي : (٦/٢٨٠ ، ٢٨١) .
١٤ - معجم المؤلفين : (٧/١٠٧) .

والحمد لله رب العــالمين

وصف مخطوط الكتاب
وتوثيقه

عثرت بفضل الله عز وجل وكرمه على مخطوط هذا الكتاب فى دار الكتب المصرية ، العامرة بذخائر تراثنا النفيس .

يقع هذا المخطوط فى دار الكتب تحت رمز « تصوف تيمور » ، تحت رقم (٣٦٨) ، ومنه صورة ميكروفيلمية برقم (٢٦٥٣٨) وخط المخطوط متوسط الجودة ، يقع فى حوالى (٣٢) صفحة فى كل صفحة (١٧) سطراً فى المتوسط .

عنوان الكتاب فى المخطوط « كتاب فى ذوق السماع » .

تلى هذا العنوان عنوان « فصل » فى الموازنة بين ذوق السماع ، وذوق الصلاة ، والقرآن ، وبيان أن أحد الذوقين مباين للآخر . وبحثت عمن ذكر الكتاب ضمن مؤلفات الشيخ ، وعن أدلة توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه فوصلت إلى مايلى :

[١] لاشك أننا أمام صفحات تراثية صحيحة النسبة إلى الإمام ابن القيم رحمه الله ، وأدلتى على ذلك ما يلى :

١ - قال ابن القيم فى الكتاب الذى بين أيدينا ما نصه : قال لى شيخ الإسلام ابن تيمية .....

ومن المعلوم أنه ما أكثر ، ولا أعطى كل وقته إلالشيخه هذا ، ثم نقله لهذا الكتاب يؤكد الصلة بين كتابنا ومؤلفه بطريقةٍ غير مباشرة .

٢ - ذكر فى ثنايا الكتاب قوله : (فقد ذكرنا فى كتاب « مراحل السائرين بين منازل أياك نعبد وإياك نستعين » ، وفى كتاب « الرسالة المصرية »

وبالنظر إلى هذين الكتابين نجد أن ما أراده المصنف موجوداً بالفعل فيهما ، وإن كان الأول يطبع بعنوان « مدارج السالكين » والثانى بعنوان « الرسالة التبوكية » فلعله من تصرف النساخ .

٣ – عندما نقارن بين كلام ابن القيم فى ذكره لمعانى الفاتحة ، وما فيها من أسرار ، نجد أن هذا الكلام بحاله وعنوانه ، وقلبه وقالبه فى تفسيره لسورة الفاتحة الذى طُبع منفصلاً تارة ، وطُبع ضمن تفسيره المجموع على يد محمد الندوى تارة أخرى .

٤ – وقال المصنف فى الكتاب الذى بين أيدينا أيضاً ما نصه : « كما ذكرنا فى هديه فى صلاته » .

وبالنظر إلى هذا الكلام فى كتاب زاد المعاد ، تحت عنوان « هديه ﷺ فى الصلاة نجد أن الكلام برمته فى الزاد فعلاً .

٥ – أشار ابن القيم فى كتابه إغاثة اللهفان – الذى لاشك ولا جدال فى صحة نسبته إلى مصنفه – إلى كتابنا هذا فقال ما نصه :–

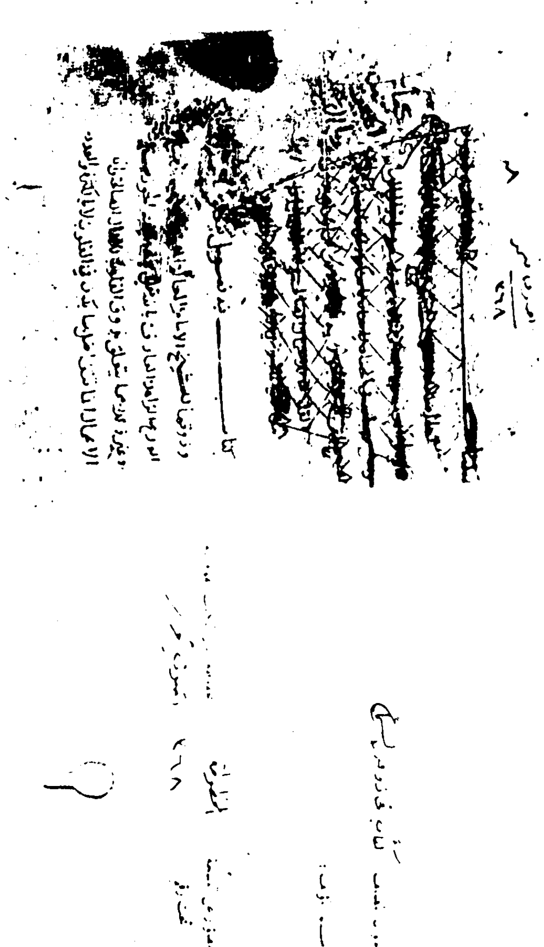
« وقد ذكرنا شبه المغنين ، والمفتونين بحب السماع الشيطانى ، ونقضناها نقضاً وإبطالاً فى كتابنا الكبير فى السماع ، وذكرنا الفرق بين مايحركه سماع الأبيات ، وما يحركه سماع الآيات » انظر الإغاثة (١/٢٨٥) .

ذكر الإمام فى كلامه السابق ما وثق لنا الصفحات التى بين أيدينا ، فالإمام له كتاب فى الغناء ، وفيه من الفصول ما يتحدث عن ذوق الأبيات يعنى الغناء ، وذوق القرآن فى الآيات القرآنية .

ولقد ذكر لنا الزركلى فى الأعلام أنه – ابن القيم – له كتاب بعنوان « كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء » وأنه مخطوط .

ومن أجل ذلك كله لم يخامرنى أدنى شك أننى أمام صفحات من تراث الإمام ابن القيم ، وإن كانت تلك الصفحات تُعد فى الحقيقة جزءاً من كتابه السماع الذى لم نعثر عليه بعدُ ، ولكن لاشك أن القارىء سيشعر بفائدة عظيمة عندما يقرأ فى تلك الصفحات وإن كانت جزءاً من كتاب فى عداد المفقودات .

والحمد لله أولاً وآخراً



١٧ ورقة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه

فصل في الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن وبيان أن أحدهما الآخر
مباين للآخر من كل وجه وأنه كلما قوي ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر
وسلطانه فاعلم أنه لا ريب أن الصلاة والقرآن قرة عيون المحبين ولذة أرواح الموحدين
وبستان العابدين ونعيم نفوس الخاشعين ومحك أحوال الصادقين وميزان أحوال
السالكين وهي رحمة الله المهداة إلى عباده المؤمنين هداهم إليها وعرفهم بها وأهداها إليهم
على يد رسوله الصادق الأمين رحمة لهم وإكراما لهم لينالوا بها شرف كرامته والفوز بقربه
لا حاجة منه إليهم بل منة منه وتفضلا عليهم وتعبد بها قلوبهم وجوارحهم جميعا وجعل
حظ القلب العارف منها أكمل الحظين وأعظمهما وهو إقباله على ربه سبحانه وفرحه وتلذذه
بقربه وتنعمه بحبه وابتهاجه بالقيام بين يديه والانصراف حال قيامه له بالعبودية عن الالتفات
إلى غير معبوده وتكميله حقوق عبوديته ظاهرا وباطنا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه
سبحانه ولما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوات وأسبابها من داخل فيه وخارج عنه
اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيأ له مأدبة قد جمعت جميع الألوان والتحف
والخلع والعطايا ودعاه إليها كل يوم خمس مرات وجعل في كل لون من ألوان
تلك المأدبة لذة ومنفعة ومصلحة ووقاية لهذا العبد الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة
ليست في اللون الآخر لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية
ويكرمه بكل صنف من أصناف الكرامة ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية

مكفرا لمذموم كان يكرهه بإزائه ويثيبه عليه نورا خاصا فإن
الصلاة نور وقوة في قلبه وجوارحه وسعة في رزقه ومحبة في العباد له وإن
الملائكة لتفرح ويفرح بها بقاع الأرض وجبالها وأشجارها وأنهارها وتكون
نورا وثوابا خاصا يوم القيامة [illegible] فلم يحرم هذه المائدة وقد
اشتهاها وأرادها وخلع عليه خلع القبول والغناء وذلك أن قلبه كالمعتزل [illegible]
فكل الماء به فوق ما له من الجوع والعطش والجدب والظماء والقرب
ما لم يصدر إلى عنده ولو أعطاه وأعطاه من الطعام والشراب واللباس
والتحف ما يغنيه ولما كانت الجدوب متتابعة على القلوب وقحط النفوس
متوالٍ عليها جدد له الدعوة إلى هذه المائدة وقتا بعد وقت رحمة منه فلا
يزال مستسقيا ما لم يقرب بيده غيث القلوب وسقيها مستمطرا سحائب رحمته
لئلا ييبس ما أنبتته له رحمته من نبات الإيمان وكلأ الإحسان وعشبه وثماره
ولئلا تنقطع مادة النبات من القلب فلا يزال القلب في استسقاء واستمطار
هكذا دائما يشكو إلى ربه جدبه وقحطه وضرورته إلى سقيا رحمته وغيث فهذا
دأب العبد أيام حياته فالقحط الذي ينزل بالقلب هو الغفلة فالغفلة قحط
القلوب وجدبها وما دام العبد في ذكر الله والإقبال عليه فغيث الرحمة ينزل عليه
كالمطر المتدارك فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة فإذا تمكنت
الغفلة منه واستحكمت صارت أرضه خرابا ميتة وسنته جرداء يابسة وحريق

في إناء خبيث والنفوس لصادقة في [illegible] العسر [illegible] وإن انتفع
من الشراب فقد لا يتلذذ له فقد تنفر منه لاستخباثها وطهارتها
وعلوها فما هي لا تشرب ذلك الشراب إلا في إناء يناسبه فإن لم تجد إناء
يناسبه صان الشراب عن وضعه في ذلك الإناء واستطرت به إناء يليق به
ومن خاصة النفوس نضع ذلك الشراب في إناء أنتن [illegible] مثل عظام
ميتة أو جلد كلب أو خنزير أو إناء خمر طال ما شرب به الخمر لا يستحي الشراب
أن يشرب طيبا لذته في هذه الآنية ولو وجد العطش [illegible]
شيء لم يجد ذوقه من ذلك ولكن حلاوة العسل [illegible]
وأثر قبضه على قلبه في تلك الحال يوجب له ذلك
وفهمنا هذا إذا كان صادقا في حاله مع الله وكان سماعه وبالله [illegible]
إن كان كاذبا كان سماعه بلذة نفسه وحظها فهو يشرب اسماعات في
الآنية القذرات ولا يحس بشيء مما ذكرناه لاستيلاء الهوى والنفس
عليه وأما صاحب السماع القرآني الذي ذوقه وشربه منه فهو
يشرب الشراب الطهور الطيب النظيف في إناء نظيف وطيبه وطهره
فالآنية ثلاثة نصيف ونجس ومختلط والأشربة ثلاثة طاهر ونجس
وممزوج والقلوب ثلاثة صحيح وسقيم ومريض فيشرب الشراب الطهور في الإناء النظيف
والسقيم مريض يشرب الشراب النجس في الإناء القذر والقلب [illegible]

بداية كتاب

الموازنة

للإمام ابن القيم

رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

[فصـــل]

فى الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة ، والقرآن ، وبيان أن أحد الذوقين مباين للآخر من كل وجه ، وأنه كلما قوى ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر وسلطانه .

فاعلم أنه لا ريب أن الصلاة والقرآن قرة عيون المحبين ولذة أرواح الموحدين ، وبستان العابدين ، وثمرة نفوس الخاشعين ، ومحل أحوال الصادقين وميزان أحوال السالكين وهى رحمة الله المهداه إلى عباده المؤمنين هداهم إليها ، وعرفهم بها ، وأهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين رحمة لهم ، وإكراماً لهم ، لينالوا بها شرف كرامته ، والفوز بقربه لا لحاجة منه إليهم ، بل منة منه ، وتفضلاً عليهم ، وتعبد بها قلوبهم وجوارحهم جميعا ، وجعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين وأعظمهما ، وهو إقباله على ربه سبحانه وفرحه وتلذذه بقربه ، متنور بحبه ، وأتبعها حبه بالقيام بين يديه ، وانصرافه حال قيامه فى العبودية عن الالتفاف إلى غير معبوده ، وتعول حقوق عبوديته ظاهراً وباطناً ، وتقع على الوجه الذى يرضاه ربه سبحانه ، ولما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوة وأسبابها من داخل فيه وخارج عنه ، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيىء له مأدبة قد جمعت جميع الألوان ، والتحف ، والخلع والعطايا ، ودعاه إليها كل يوم خمس مرات وجعل فى كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة ومنفعة ومصلحة ووقاراً لهذا العبد الذى قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست فى اللون الآخر ، تكمل لذته بكل لون من ألوان العبودية وتكرمة له بكل صنف من أصناف الكرامة ، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مكفراً لمذمومٍ كان يكرهه بإزائه يثبيه عليه نوراً خاصاً ، فإن الصلاة نور وقوة فى قلبه وجوارحه وسعة فى رزقه ومحبة فى العباد له ، وإن الملائكة لتفرح وكذلك بقاع الأرض ، جبالها وأشجارها ، وأنهارها تُكون له نوراً

وثواباً خاصاً يوم لقائه ، فيصدر المدعو من هذه المأدبة وقد أشبعه وأرواه ، وخلع عليه خلع القبول ، وأغناه ، وذلك أن قلبه كان قبل أن يأتى هذه المأدبة قد ناله من الجوع ، والقحط والجدب والظمأ والعرى ، والسقم ما ناله فصدر من عنده وقد أغناه وأعطاه من الطعام والشراب واللباس والتحف ما يغنيه .

ولما كانت الجدوب[1] متتابعة على القلوب وقحط النفوس متوالى عليها جرد له ، تدعوه لهذه المأدبة وقتاً بعد وقت رحمة منه به ، فلا يزال مستسقياً طالباً إلى من بيده غيث القلوب ، وشفها مستمطراً أصحاب رحمته لئلا ييبس ما أنبتته تلك الرحمة من نبات الإيمان ، وكلأ[2] الإحسان وعشبه وثماره ، ولئلا تنقطع مادة النبات من الروح والقلب ، فلا يزال القلب فى استسقاء واستمطار هكذا دائماً ، يشكو إلى ربه جدبه ، وقحطه ، وضرورته إلى سقيا رحمته ، وغيث بره ، فهذا دأب العبد أيام حياته ، فالقحط الذى ينزل بالقلب هو الغفلة ، فالغفلة هى قحط القلوب ، وجدبها ، ومادام العبد فى ذكر الله والإقبال عليه فغيث الرحمة ينزل عليه كالمطر المتدارك ، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة ، فإذا تمكنت الغفلة منه ، واستحكمت صارت أرضه خراباً ميتة ، وسنته جرداء يابسة ، وحريق الشهوات تعمل فيها من كل جانب كالسائم[3] فتصير أرضه بوراً[4] بعد أن كانت مخصبة بأنواع النبات،والثمار وغيرها وإذا تدارك عليه غيث الرحمة اهتزت إلى مدخل إيمانه ، وأعماله وربت[5]، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فإذا ناله القحط والجدب كان بمنزلة شجرة رطوبتها وخضرتها ولينها وثمارها من الماء ، فإذا منعت من الماء يبست تبعاً لترك قيام القلب بها وتركه تعاهدها .

---

(١) الجدب : المحل نقيض الخصب ، والأجادب : الأرض التى تُمسك الماء ، فلا تشربه سريعاً ، وقيل : هى الأرض التى لا نبات بها ، وأرض جدوب لا تكاد تخصب ، والمراد هنا : هو ماينزل بالقلوب من المعاصى ، والذنوب ، والخطايا والكبائر ، والغفلة والتوانى مما يعطله عن ذكر الله وطاعته .

(٢) الكلأُ : البقلُ والشجر ، ويقع عند العرب على العشب ، وهو الرطب .

(٣) السائمة : الإبل الراعية حيث شاءت ، يقال : أسمت الإبل إذا خليتها ترعى .

(٤) البور : الأرض التى لم تزرع ، والبوار الهلاك .

(٥) ربا الشيء يربو رُبُواً : زاد ونما ، وربت الأرض عظمت وانتفخت .

أحوال الناس عند نعم الله

والناس ثلاثة : رجل عرف نعمة الله فيما خلق من الجوارح وأنعم عليه من الإيمان ، والنعم ، فقام بعبوديته ظاهراً وباطناً واستعمل جوارحه فى طاعة ربه ، وحفظ نفسه وجوارحه عما يغضب ربه ويشينه(٦) عنده .

والثانى : استعمل جوارحه فيما لم يخلق له بل حبسها على المخالفات والمعاصى ، ولم يطلقها فهذا هو الذى خاب سعيه ، وخسرت تجارته ، وفاته رضا ربه عنه ، وجزيل ثوابه وحصل على قحطه وأليم عقابه .

والثالث : من عطل جوارحه ، وأماتها بالبطالة ، والجهالة ، فهذا أيضاً خاسر بائر أعظم خسارة ، فإن العبد إنما خلق للعبادة والطاعة لا للبطالة .

وأبغض الخلق إلى الله العبد البطال الذى ليس فيه أمر دنياه ، ولا أمر آخرته ، بل موكل على الدنيا والدين ، بل لو سعى للدنيا ولم يسع للآخرة كان مذموماً مخذولاً ، وكيف إذا عطل الأمرين ، وإن إمرء يسعى لدنياه دائماً ، ويذهل عن أخراه ، لا شك خاسر .

تمثيل أهل اليقطة والغفلة والخيانة

فالرجل الأول كرجل أقطع أرضاً واسعة ، وأعين(٧) على عمارتها بآلات الحرث ، والبذر ، وأعطى مايكفيها السقيا وحرثها فحرثها وهيأها للزراعة ، وبذر فيها من أنواع الغلات ، وغرس فيها من أنواع الأشجار ، والفواكه ، المختلفة الألوان ، ثم أحاطها بحائط ، ولم يهملها بل أقام عليها الحرس ، وحصنها من الفساد

---

(٦) الشين : الفضيحة والعار .

(٧) أى جعله عيناً عليها ، يحرسها ، ويحميها من كل عابث .

والمفسدين ، وجعل يتعاهدها كل يوم فيصلح ما فسد منها ، ويغرس فيها عوض ما يبس ، وينقى دغلها[8] ويقطع شوكها ، ويستعين بغلها على عمارتها .

والثانى بمنزلة رجل أخذ تلك الأرض ، وجعلها مأوى السباع والهوام ، وموضعاً للجيف والأنتان ، وجعلها معقلاً يأوى إليه فيها كل مفسد ، ولص وأخذ ماأعين به من حرثها وبذارها وصلاحها فصرفه ، وجعله معونة ومعيشة لمن فيها من أهل الشر والفساد .

والثالث : بمنزلة رجل عطلها وأهملها وأرسل الماء ضائعاً فى القفار[9] ، والصحارى فقعد مذموماً محصوراً .

فهذا مثال أهل اليقظة ، وأهل الغفلة ، وأهل الخيانة فالأول مثال أهل اليقظة ، والإستعداد لما خلقوا له ، والثانى مثال أهل الخيانة والثالث مثال الغفلة .

فالأول إذا تحرك أو سكن ، أو قام أو قعد ، أو أكل أو شرب ، أو نام ، أو لبس ، أو نطق ، أو سكت كان ذلك كله له لا عليه وكان فى ذكرٍ وطاعةٍ وقرب .

والثانى إذا فعل ذلك كان عليه لا له ، وكان فى طردٍ وإبعادٍ وخسارات .

والثالث إذا فعل ذلك كان فى غفلة وبطالة وتفريط .

فالأول : يتقلب فيما يتقلب فيه بحكم الطاعة والقربة ، والثانى : بحكم الخيانة والتعدى ، فإن الله لم يملكه ما ملكه ليستعين به على مخالفته ، فهو جان معتدٍ خائن لله فى نعمه عليه معاقب على التنعم بها فى غير طاعته .

---

(٨) الدغل : الفساد ، والدغل : الشجر الكثير الملتف ، يقال : رجل مدغل : مفسد ، وأصل الدغل : الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه ، وقيل : هو من قولهم : أدغلت فى هذا الأمر إذا أدخلت فيه مايخالفه ويفسده .

(٩) القفر : الأرض التى فقرت فى النبات والماء .

والثالث : يتقلب فى ذلك ويتناوله بحكم الغفلة والهوى ونهمة النفس وطبعها ، لم يتمتع بذلك ابتغاء رضوانه والتقرب إليه فهذا خسرانه بين واضح إذ عطل أوقات عمره التى لا قيمة لها عن أفضل الأرباح والتجارات .

فدعا الله عباده المؤمنين الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه بهم ، وهيأ لهم فيها أنواع العبادة لينال العبد من كل قولٍ ، وفعلٍ وحركة وسكون حظه من عطاياه ، وكان سر الصلاة ، ولها إقبال الطلب فيها على الله ، وحضوره كليته بين يديه ، فإذا لم يقبل عليه واشتغل بغيره ولهى بحديث نفسه ، كان بمنزلة وافد وفد إلى باب ملك مستعذراً من خطاياه ، وزلله مستمطراً نجائب جوده وكرمه ورحمته مستطعماً له ما يقيت قلبه ، ليقوى به على القيام فى خدمته فلما وصل إلى باب الملك ، ولم يبق إلا مناجاة الملك ، التفت عن الملك يميناً وشمالاً ، وولاه ظهره ، واشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك ، وأقله عنده قدرا فآثره عليه ، وصيره قبلة قلبه ، ومحل توجهه ، وموضع سره ، وبعث غلمانه وخدمه ليقفوا فى خدمة الملك عوضاً عنه ، ويعتذروا عنه ، وينوبوا عنه فى الخدمة والملك يشاهد ذلك ويرى حاله مع هذا فكرم الملك وجوده وسعة بره ، وإحسانه تأبى أن يصرف عنه تلك الخدمة ضائعة ، والاتباع فيصبه من رحمته وإحسانه لكن فرق بين قسمة الغنائم على أهل السهمان من الغانمين ، وبين الرضخ[10] لمن لايسهم له ﴿ **ولكل درجات مما عملوا ولنوفينهم أعمالهم وهم لايظلمون** ﴾[11] والله سبحانه خلق هذا النوع الإنسانى لنفسه واختصه له ، وخلق كل شيء له ، ومن أجله كما فى الأثر الإلهى .

« ابن آدم خلقتك لنفسى ، وخلقت كل شيء لك فبحقى عيك لاتشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له » .

---

(١٠) الرضخ : القبول والإذعان .
(١١) سورة الأحقاف : ١٩ .

وفى أثر آخر :-

« ابن آدم خلقتك لنفسى وتكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » .

وجعل الصلاة سبباً موصلاً إلى قربه ، ومناجاته ، ومحبته والأنس به ، ومابين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة والجفوة والنشوة ، والإعراض والزلات ، والخطايا ، وذلك بسبب البعد عن ربه ، وتنحيه عن قربه ، فيصير بذلك كأنه أجنبياً من عبوديته ، ليس من جملة العبيد ، وربما ألقى بيده إلى أشر العدو له وأسره ، وغله ، وقيده ، وحسبه فى سجن نفسه ، وهواه ، فحظه ضيق الصدر ، ومعالجة الهموم ، والغموم ، والأحزان ، والحسرات ، ولايدرى سبب فى ذلك فاقتضت رحمة ربه الرحيم الودود أن جعل له من عبوديته عبودية جامعة ، مختلفة الأجزاء ، والحالات بحسب اختلاف الأحداث التى كانت من العبد ، وبحسب شدة حاجته إلى نصيبه من كل خير من أجزاء تلك العبودية .

فبالوضوء يتطهر من الأوساخ ، ويقدم على ربه متطهراً والوضوء له ظاهر وباطن :-

فظاهره : طهارة البدن ، وأعضاء العبادة .

وباطنه وسره : طهارة القلب من أوساخ الذنوب والمعاصى .

وأدرانه بالتوبة ولهذا فرق تعالى بين التوبة والطهارة فى قوله :

﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾(١٢)

وشرع النبى ﷺ للمتطهر أن يقول بعد فراغه من الوضوء أن يتشهد ويقول :

---

(١٢) سورة البقرة : ٢٢٢ .

قال ابن كثير رحمه الله : « إن الله يحب التوابين » أى من الذنب ، وإن تكرر غشيانه « ويحب المتطهرين » أى المتنزهين عن الأقذار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو غير المأتى .

« **اللهم أجعلنى من التوابين ، وأجعلنى من المتطهرين** »[١٣] .

فكمل له مراتب العبودية والطهارة ، ظاهراً وباطناً ، فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك ، والتوبة يتطهر من الذنوب ، وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة .

فشرع له أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله عز وجل ، والوقوف بين يديه ، وبذلك يخلص من الإباق[١٤] ، ومجيئه إلى داره ، ومحل عبوديته يصير من جملة خدمه ، ولهذا كان المجيء إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة الواجبة عند قوم والمستحبة عند آخرين .

---

(١٣) صحيح . أخرجه الترمذى (٥٥) من حديث عمر ، وقال : هذا حديثٌ فى إسناده اضطراب ، وقال الألبانى : ليس بشيء فإنه اضطرابٌ مرجوح .

قلت : سند حديث عمر فى درجة الحسن ، وله شواهد .

* له شاهدٌ من حديث على ، أخرجه ابن أبى شيبة (٤٥١/١٠) فى المصنف ، وعبدالرزاق (١٨٦/١) فى مصنفه ، وفى سنده الحارث الأعور ، وهو من الضعفاء .

* وله شاهدٌ من حديث ثوبان ، أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٣٩/١) وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير باختصار،وقال فى الأوسط تفرد به مسور بن مورع ، ولم أجد من ترجمه ، وفيه أحمد بن سهيل الوراق ذكره ابن حبان فى الثقات .

(١٤) الإباق : هرب العبيد وذهابهم من غير خوفٍ ، ولا كدّ عمل ، يقال : أبق أبقاً وإباقاً فهو آبق ، وجمعه أُباقٌ ، وأبق وتأبق : استخفى ثم ذهب .

حـال العبد حين الغفـلة

والعبد فى حال غفلته كالآبق من ربه ، قد عطل جوارحه وقلبه من خدمته التى خلق بها ، فإذا جاء إليه فقد رجع من إباقته فإذا وقف بين يديه موقف العبودية ، والتذلل ، والانكسار فقد استدعى عطف سيده عليه ، وإقباله عليه بعد الإعراض عنه ، وأمر بأن يستقبل بيته الحرام بوجهه ، ويستقبل الله عز وجل بقلبه ، لينسلخ لما كان فيه من التوانى والإعراض ، ثم قام بين يديه مقام المتذلل الخاضع المسكين المستعطف لسيده عليه ، وألقى بيده مسلماً مستسلم الرأس ، خاشع القلب مطرق الطرق لايلتفت قلبه عنه ولا طرفة عين ، لايمنة ولايسرة ، بل قد توجه بقلبه كله إليه ، وأقبل بكليته عليه ، ثم كبره بالتعظيم ، والإجلال وأطاع قلبه لسانه فى التكبير ، بأن لايكون فى قلبه شىء أكبر من الله يشغله عنه ، فإذا كان فى قلبه شىء يشتغل به عن الله دل على أن ذلك الشىء أكبر عنده من الله ، فإنه إذا إشتغل بغيره كان ما أشتغل به هو أهم عنده من الله ، وكان قوله الله أكبر بلسانه دون قلبه ، لأن قلبه مقبل على غير الله ، معظماً له ، مجلاً ، فإذا ما أطاع اللسان القلب فى التكبير أخرجه من لبس رداء التكبر من هاتين الآفتين اللتين هما من أعظم الحجب بينه وبين الله ، فإذا قال : سبحانك اللهم وبحمدك ، وأثنى على الله بما هو أهله ، فقد خرج ذلك عن الغفلة وأهلها ، فإن الغفلة حجاب بينه وبين الله ، وأتى بالتحية والدعاء والذى يخاطب به الملك عند الدخول عليه تعظيماً له وتمهيداً ، وكان ذلك مقدمه بين يدى حاجة فطال فى الثناء من أدب العبودية ، وتعظيم المعبود ما يستجلب به إقباله عليه ، ورضاه عنه ، واستعاذ بقضاء حاجة إليه . فإذا شرع فى القراءة قدم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم فإنه أحرص مايكون عليه خذلان العبد فى مثل هذا المقام الذى هو أشرف مقامات العبد ، وأنفعها فى دنياه وآخرته ، فهو أحرص شىء على صرفه عنه، واقتطاعه دونه بالبدن والقلب ، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن ، اقتطع قلبه وعطله ، وألقى فيه الوسواس لشغله بذلك عن القيام بحق العبودية بين يدى الرب ، قام العبد بالإستعاذة بالله منه،ليسأله مقامه ، وليحيى قلبه ، ويستنير

بما يتدبره ويتفهمه من كلامه الذى هو سبب حياة قلبه ، ونعيمه وفلاحه ، فالشيطان أحرص شيء على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة ، ولما علم الله سبحانه وتعالى حسد العدو للعبد ، وتفرغه له ، وعلم عجز العبد عن أمره أن يستعيذ منه ، ويلتجأ إلى الله فى صرفه عنه فيكتفى بالاستعاذه من مؤونة محاربته ومقاومته ، وكأنه قيل له : لا طاقة لك بهذا العدو ، فاستعذنى أعيذك منه ، واستجرنى أجيرك منه ، وأكفلك وأمنعك منه .

من نصـائح ابن تيمية – رحمه الله

وقال لى شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يوماً : إذا جاحش[١٥] عليك كلب الغنم فلا تشغل بمحاربته ، ومدافعته ، وعليك بالراعى فاستغث به فهو يصرفه عنك ، ويكفيك .

فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان أبعده عنه .

فأفضى القلب إلى معانى القرآن ، ووقع فى رياضته الموافقة وشاهد عجائبه التى تبهر العقول ، واستخرج من كنوزه ، وذخائره ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، وكان الحائل بينه وبين ذلك ، النفس والشيطان ، فإن النفس منفعلة بالشيطان ، سامعة منه فإذا بعد عنها وطرد ألم بها الملك ، وثبتها وذكرها بما فيه سعادتها ونجاتها ، فإذا أخذ العبد فى قراءة القرآن ، فقد قام فى مقام مخاطبة ربه ومناجاته ، فليحذر كل الحذر من التعرض لمقته وسخطه ، بأن يناجيه ويخاطبه ، وقلبه معرض عنه ملتفت إلى غيره ، فإنه يستدعى بذلك مقته ، ويكون بمنزلة رجل قربه ملك من ملوك الدنيا وأقام بين يديه ، فجعل يخاطب الملك ، وقد ولاه قفاه ، أو التفت عنه بوجهه يمنة ويسرة ، فهو لايفهم مايقول الملك ، فما الظن بمقت الملك لهذا فى الظن بمقت الملك الحق المبين رب العالمين وقيوم السموات والأرضين ، فينبغى بالمصلى أن يقف عند آية من الفاتحة وقفة يسيرة ينتظر جواب ربه له ، وكأنه يسمعه ، وهو يقلول : « حمدنى عبدى » إذا قال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ وقف لحظة ينتظر قوله أثنى على عبدى ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ أنتظر قوله مجدنى

---

(١٥) جاحش : زاحم ليخدش ، أو خدش بالفعل .

عبدى ، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أنتظر قوله تعالى هذا بينى وبين عبدى ، فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخرها انتظر قوله هذا لعبدى ولعبدى ما قال »[١٦] .

(١٦) صحيح . أخرجه مسلم (٣٩٥) ، والبخارى (١١) ، (٧٣) ، (٧٤) فى جزء القراءة ، وأحمد (٢/٤٦٠) ، وأبوداود (٨٢١) ، والترمذى (٣١٢) ، (٢٩٩٣) ، والنسائى (٢/١٣٥-١٣٦) ، وابن ماجه (٨٣٨) ، وعبدالرزاق (٢٧٦٧) فى مصنفه ، والبيهقى (ص/٣٢) فى جزء القراءة .

حـال من ذاق طعم الصـلاة

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لايقوم مقام التكبير والفاتحة غيرهما مقامها كما لايقوم غير القيام الركوع والسجود مقاماً . فلكل عبودية من عبودية الصلاة سر ، وتأثير ، وعبودية ، لاتحصل فى غيرها ، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية ، وذوق ووجد يخصها لايوجد فى غيرها فعند قوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ تجد هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب فعلاً ووصفاً واسماً ، وتنزيهه عن كل شر وعيب فعلًا ووصفًا ، وإنما هو محمود فى أفعاله وأوصافه ، وأشيائه ، منزه عن العيوب والنقائض فى أفعاله وأوصافه وأشيائه فأفعاله كلها أوصاف كمال ، ونعوت جلال ، وأسمائه كلها حسنى ، وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة ، والسموات والأرض ، ومابينهما ، وما فيهما فالكون كله ناطق بحمده ، والخلق والأمر كله صادر عن حمده ، وقائم بحمده ، ووجوده بحمده ، وعدمه بحمده ، فحمده هو سبب وجود كل شيء موجود ، وهو فانى كل موجود ، وكل موجود شاهد بحمده ، وإرساله رسله بحمده ، وإنزاله كتبه بحمده ، والجنة عمرت بأهلها بحمده ، والنار عمرت بأهلها بحمده ، كما أنهما إنما وجدتا بحمده .

وماأطيع إلا بحمده ، وما عصى إلا بحمده ، ولا تسقط ورقة إلا بحمده ، ولا تتحرك فى الكون ذرة إلا بحمده ، فهو المحمود لذاته وإن لم يحمده العباد .

كما أنه الواحد الأحد وإن لم يوحده العباد ، وهو الإله الحق وإن لم يألهه العباد ، وهو سبحانه الذى حمد نفسه على لسان الحامد كما قال النبى ﷺ :

« **إن الله تعالى قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده** »[17] .

---

(١٧) صحيح أخرجه مسلم (٤٠٤) والنسائى (٤٢/٣) .

فهو الحامد لنفسه فى الحقيقة على لسان عبده ، كأنه هو الذى أجرى الحمد على لسانه وقلبه ، وأجراه بحمده فله الحمد كله ، وله الملك كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، زيادة علانيته وسره .

فهذه نبذه يسيره من معرفة عبودية الحمد ، وهى نقطة من بحر لجى . ومن عبوديته أيضا : أن يعلم أن حمده لربه نعمة منه عليه ، يستحق عليها الحمد ، فإذا حمده عليها أثنى على حمده حمداً آخر وهلم جرا .

فالعبد ولو استنفذ أنفاسه كلها فى حمد ربه على نعمة من نعمه كان مايجب عليه من الحمد عليها فوق ذلك ، وأضعاف أضعاف ، ولايحصى أحد البته ثناء عليه ، ولو حمده بجميع المحامد . فالعبد سائر إلى الله بكل نعمة من ربه ، يحمده عليها فإذا حمده على صرفها عنه حمده على إلهامه الحمد .

قال الأوزاعـي :-

« سمعت بعض قَوَّالٍ[١٨] ينشد فى حمام »

(لك الحمد إما على نعمة وإما على نقمة » .

ومن عبودية الحمد : شهود العبد لعجزه عن الحمد ، وأن ماقام به منه ، فالرب سبحانه هو الذى ألهمه ذلك ، فهو محمود عليه ، إذ هو الذى أجراه على لسانه وقلبه ، ولولا الله ما اهتدى أحد .

ومن عبودية الحمد : تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرها وباطنها على مايحب العبد منها ، ومايكره ، بل على تفاصيل أحوال الخلق كلهم ، برهم وفاجرهم ، علوهم وسفلهم ، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله فى الحقيقة ، وإن غاب عن شهود العبد حكمة ذلك ، ومايستحق الرب من الحمد على ذلك رأى حمده لله هو إلهام من الله للمرء ، فمستقل ومستكثر على قدر معرفة العبد بربه .

---

(١٨) تقول العرب : ابن أقوال ، وابن قوَّال أى جيد الكلام فصيح ، فإذا كان الرجل ذا لسانٍ طلقٍ قيل له : إنه لابن قول ، وابن أقوال . انظر : اللسان (٥٧٣/١١) .

وقد قال النبى ﷺ فى حديث الشفاعة :

« **فأقع ساجدا فيلهمنى الله محامد أحمده لم تخط على بالى قط** »[١٩] .

ثم قال العبد ﴿ رب العالمين ﴾ من العبودية مشهود تفرده بالربوبية وحده ، وأنه كما أنه رب العالمين ، وخالقهم ، ورازقهم ، ومدبر أمورهم وموجودهم ، ومغنيهم ، فهو وحده إلههم ، ومعبودهم ، وملجأهم ومفزعهم عند النوائب ، فلا رب غيره ، ولا إله سواه ، ولقوله الرحمن الرحيم عبودية تخصه ، وهى شهود العبد عموم رحمته .

[..........][٢٠] شىء ، ومنعتها لكل مخلوق وآخذ كل موجود بنصيبه منها ، وأدنى الرحمة الخاصة بالعبد وهى أدنى [..........][٢١] بين يدى ربه ، أقم فلاناً ، وأنم فلاناً فيرحمهم لعبد أقام فى خدمته يناجيه بكلامه ، ويتملقه ويدعوه ويستعطفه ويسأله هدايته ورحمته ، وتمام نعمته عليه دنيا وآخرة ، فهذا من رحمته بعبده ، فرحمته وسعت كل شىء ، كما أن حمده وسع كل شىء ، وزيادة علمه وسع كل شىء رحمة وعلما ، وغيره مطرود محروم قد فاتته هذه الرحمة الخاصة فهو منفى عنها .

ويعطى قوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ عبوديته من الذل والانقياد .

وقصد العدل والقيام بالقسط ، وكل نقمة عن الظلم والمعاصى . وليتأمل تضمنه بإثبات الميعاد ، وتفرد الرب فى ذلك بالحكم بين خلقه ، وأنه يوم يدين الله فيه الخلق بأعمالهم من الخير والشر ، وذلك من تفاصيل حمده ، ومن محبته كما قال تعالى :

﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾[٢٢]

---

(١٩) صحيح . أخرجه أحمد (٤٣٦/٢) ، (٢٤٨/٣) ، والبخارى (٧٤١٠) ، (٧٥١٠) ، ومسلم (١٩٣) ، (١٩٤) ، والترمذى (٢٥٥١) .

(٢٠) طمسٌ فى الأصل .

(٢١) بياض فى الأصل .

(٢٢) سورة الزمر : ٧٥ .

إخبار عن حمد عبده له قال : حمدنى عبدى .

ولما كان قوله : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ إعادة وتكرير الأوصاف كما له قال : « أثنى على عبدى » ، فإن الثناء إنما يكون بتكرار المحامد ، وتعداد أوصاف المحمود ، فالحمد ثناء عليه ، والرحمن الرحيم وصفه بالرحمة .

ولما وصف العبد ربه تفرده بملك يوم الدين والملك الحق مالك الدنيا والآخرة وذلك متضمن لظهور عدله ، وكبريائه وعظمته ، ووحدانيته ، وصدق رسله ، سمى هذا الثناء مجداً فقال : « مجدنى عبدى » فإن التمجيد وهو الثناء بصفات العظمة ، والجلال ، والعدل ، والإحسان .

فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ انتظر جواب ربه له : « **هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ماسأل** »[23] .

وتأمل عبودية هايتن الكلمتين وحقوقهما ، وميـز الكلمة التى للرب ، والكلمة التى للعبد ، وفقه سر كون أحدهما لله ، والآخر للعبد ، وميز بين التوحيد الذى تقتضية كلمة ﴿ إياك نعبد ﴾ والتوحيد الذى تقتضيه كلمة ﴿ إياك نستعين ﴾ وفقه سر كون هاتين الكلمتين فى وسط السورة بين نوعى الثناء قبلهما ، والدعاء بعدهما ، وفقه تقديم إياك نعبد على إياك نستعين ، وتقديم المعمول على القول مع الإتيان به ملخصاً موجزاً مختصراً ، وسر إعادة الضمير مرة بعد مرة .

قلت : أراد تقديم العبادة وهى العمل على الاستعانه ، فالعبادة لله ، والاستعانه للعبد ، فالله هو المعبود ، وهو المستعان على عبادته ، فإياك نعبد أى إياك أريد ، وهو يتضمن العمل الصالح الخالص والعلم النافع [....][24] على الله معرفة ومحبة ، وصدقاً وإخلاصا ، فالعبادة حق الرب على عبده ، والاستعانة تتضمن استعانة العبد بربه على جميع أموره وهى القول المتضمن قسم العبد .

---

(٢٣) سبق تخريجه .

(٢٤) بياض فى الأصل .

فكل عبادة لاتكون لله ، وبالله فهى باطلة مضمحلة[٢٥] ، وكل استعانة لاتكون بالله فهى خذلان وذل .

قال : وتأمل أن ماينفع العباد ، ومايدفع عنهم كل واحد من هاتين الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية نفعاً [.....][٢٦] وكيف تدخل العبد الكلمتان فى ضريح العبودية .

وتأمل علم كيف يدون القرآن كله من أوله إلى آخره عليهما ، وكذلك الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب ، والدنيا ، والآخرة ، وكيف تضمنتا لأجل الغايات ، وأكمل الوسائل ، وكيف أتى بينهما بضمير المخاطب الحاضر ، دون ضمير الغائب ، وهذا موضوع يستدعى كتاباً كبيراً ، ولولا الخروج عما نحن بصدده لأوضحناه . وبسطناه ، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرنا فى كتاب : « مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وفى كتاب الرسالة المصرية .

ثم ليتأمل العبد ضرورته و[.........][٢٧] إلى قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الذى مضمونه معرفة الحق،وقصده وإرادته والعمل به ، والثبات عليه ، والدعوة إليه ، والصبر على أذى المدعو إليه فباستكمال هذه المراتب الخمسة يستكمل العبد الهداية ومانقص منها نقص من هدايته .

ولما كان العبد مفتقراً إلى هذه الهداية فى ظاهره ، وباطنه بل وفى جميع مايأتيه ، ويذره من أمور فعلها على غير الهداية علماً وعملاً ، وإرادة ، فهو محتاج إلى التوبة منها وتوبته منها هى من الهداية . فأمور قد هُدى إليها من وجهٍ دون وجهٍ فهو محتاج إلى تمار الهداية فى كمالها على الهدى المستقيم ، وأن يزداد هدى إلى هدى .

---

(٢٥) الضحل : القريب القعر ، والضحل : الماء الرقيق على وجه الأرض ليس له عمقٌ ، فالقليل يقال له : ضحل ، واضمحل الشيء أى ذهب ، وفى لغة الكلابيين امضحل بتقديم الميم . انظر : لسان العرب (٣٩٠/١١) .

(٢٦) غير واضح أشبه بالمطموس فى الأصل .

(٢٧) طمسٌ فى الأصل .

وأمور هو محتاج فيها أن يحصل له من الهداية فى مستقبلها مثل ماحصل له فى ماضيها .

وأمور هو قال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها اعتقاداً صحيحا .

وأمور : يعتقد فيها خلاف ماهى عليه فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد الباطل ، وتثبت فيه ضده .

وأمور من الهداية : هو قادر عليها ، ولكن لم يخلف له إرادة يفعلها بها .

وأمور منها : هو قادر على فعلها مع كونه مريد لها فهو محتاج فى إرادته إلى هداية إلى إقداره .

وأمور منها : هو غير قادر عليها ولا مريد لها فهو محتاج إلى خلق الإرادة عليها ، والإرادة لها تتم له بالهداية .

وأمور : هو قائم بها على وجه الهداية اعتقاداً وإرادةً ، وعلماً وعملاً ، فهو محتاج إلى الثبات عليها واستدامتها كانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات ، وفاقته إليها أشد الفاقات . ولهذا فرض الرب الرحيم هذا السؤال على العبيد كل يوم وليلة فى أفضل أحواله ، وهى الصلوات ، ثم بين أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب وأهل الضلال ، وهم اليهود ، والنصارى وغيرهم .

أحوال الخلق بالنسبة للهداية

وانقسم الخلق إلى ثلاية أقسام : بالنسبة إلى هذه الهداية منعم عليه : بحصولها له واستمرارها وحظه من المنعم عليهم بحسب حظه من تفاصيلها وأقسامها .

وضال : لم يعطه هذه الهداية ولم يوفق لها .

ومغضوب عليه عرفها ، ولم يوفق للعمل بموجبها .

فالضال : جائر عنها ، جائر لايهتدى إليها سبيلا .

والمغضوب عليه : متحير منحرف عنها لانحرافه عن الحق بعد معرفته به مع علمه بها .

فالأول المنعم عليه قائم بالهدى ، ودين الحق علماً وعملاً واعتقاداً والضال عكسه .

والمغضوب لايرفع فيها رأساً ، والله الموفق للصواب .

ولولا أن المقصود على المضرة ، والمنافى التى بين ذوق الصلاة ، وذوق السماع ، لبسطنا هذا الموضوع بسطاً ثانياً ، ولكن لكل مقام مقال فلنرجع إلى المقصود .

وشرع له التأمين فى آخر الدعاء ، ولإجابته ، وحصوله ، وطابقاً عليه ، وتحقيقاً له ، ولهذا اشتد حسد اليهود للمسلمين عليه حين سمعوهم يجهرون به فى صلاتهم ، ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع تعظيماً لأمر الله ، واتباعاً للسنة ، فهو حلية الصلاة وزينتها وتعظيم لشعائرها .

ثم شرع له التكبير الذى فى انتقالات الصلاة من ركنٍ إلى ركنٍ ، كالتلبية فى انتقالات الحاج ، من مشعرٍ إلى مشعرٍ ، فهو شعار الصلاة ، كما أن التلبية شعار الحاج ، ليعلم العبد أن سر الصلاة هو تعظيم الرب تعالى وتكبيره بعبادته وحده .
ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعاً لعظمة ربه ، واستكانة ، وتزهداً لعزته .

فثناء العبد على ربه فى هذا الركن هو أن يحنى له صلبه ، ويضع له قامته ، ويكبره معظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ، المقترن بتعظيمه فيجمع بين خضوع القلب ، وخضوع الجوارح فاجتمع له خضوع القلب ، وخضوع الجوارح ، وخضوع القول على أتم الأحوال ، ويجتمع له فى هذا الركن من الخضوع والتواضع والتعظيم ، والذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه ، والخضوع للعبيد بعضهم لبعض .

فإن الخضوع وصف العبد ، والعظمة وصف الرب ، وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع ، ويتضاءل لربه ، بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كل تعظيم فيه لنفسه ، ولخلقه ويثبت مكانه تعظيمه ربه وحده لاشريك له .

وكلما استولى على قلبه تعظيم الرب ، وقوى خرج منه تعظيم الخلق ، وازداد تصاغره هو عند نفسه بالركوع للقلب بالذات ، والقصد والجوارح بالتبع والتكملة .

ثم شرع أن يحمد ربه ، ويثنى عليه بالآية عند اعتداله وانتصابه ورجوعه إلى أحسن هيئاته منتصب القامة معتدل لها فيحمد ربه ، ويثنى عليه بالآية عند اعتداله وانتصابه ورجوعه إلى أحسن تقويم ، وبأن وفقه وهداه لهذا الخضوع الذى قد حرمه غيره ، ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال والاستواء ، واقفًا فى خدمته ، بين يديه كما كان فى حالة القراءة فى ذلك .

ولهذا الاعتدال ذوق خاص وحال يحصل للقلب ، ويخصه سوى ذوق الركوع وحاله ، وهو ركن مقصود لذاته كركن الركوع والسجود سواء .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يطيله كما يطيل الركوع والسجود ، ويكثر فيه من الثناء ، والحمد والتمجيد كما ذكرناه فى هديه فى صلاته[٢٨] وكان فى قيام الليل يكثر فيه من قول :

« لربى الحمد »[٢٩] يكررها .

ثم شرع له أن يدنو ويخر ساجداً ، ويعطى فى سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية ، فيضع ناصيته بالأرض بين يدى ربه ، ويضع أشرف ما فيه بين يدى سيده ، راغماً أنفه ، خاضعاً له قلبه ، وجوارحه متذللاً لعظمة ربه ، منيباً إليه ، مستكيناً بين يديه أذل شيء ، وأكسر لربه تعالى ، مسبحاً له بعلوه فى أعظم سفوله ، ذلاً وخضوعاً ، وانكساراً قد صارت أعاليه سافله .

وكان حال قلبه فى ذلك حال جسده ، فسجد القلب لربه كما سجد الجسد بين يدى الله ، وقد سجد معه أنفه ووجهه ، ويداه وركبتاه ، ورجلاه فهذا العبد هو القريب المقرب فهو أقرب مايكون من ربه ، وهو ساجد[٣٠] .

وشرع له أن يقل فخذيه عن ساقيه ، وبطنه عن فخذيه وعضويه عن جنبيه ليأخذ كل جزء منه حظه من الخضوع لايحمل بعضه بعضا .

فأحرى فى هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه فى غيرها من الأحوال كلها كما قال النبى ﷺ .

« أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد »[٣١] .

---

(٢٨) انظر : زاد المعاد لابن القيم (١/٢٢٠-٢٢١) .

(٢٩) صحيح . أخرجه أحمد (٥/٣٩٨) ، وأبوداود (٨٧٤) ، والنسائى (٢/١٩٩-٢٠٠) وغيرهم .

(٣٠) صحيح . بلفظ « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .
أخرجه مسلم (٤٨٢) ، وأبوداود (٨٧٥) ، والنسائى (٢/٢٢٦) ، وأحمد (٢/٤٢١) ، والبغوى (٣/١٥١) فى شرح السنة ، والبيهقى (٢/١١٠) .

(٣١) انظر السابق .

هــل يســجد القلــب ؟

ولما كان سجود القلب خضوعه التام لربه أمكن استدامة هذا السجود إلى يوم القيامة ، كما قيل لبعض السلف :

هل يسجد القلب ؟

قال :

« أى والله سجدة لايرفع رأسه منها حتى يلقى الله عز وجل » .

إشارة إلى جنان القلب ، وذله ، وخضوعه ، وتواضعه وإنابته وحضوره مع الله أينما كان ، ومراقبته له فى الخلاء والملأ ، ولمابنيت الصلاة على خمس :

القراءة ، والقيام ، والركوع ، والسجود ، والذكر .

سميت باسم كل واحد من هذه الخمس

فسميت قياماً لقوله :-

﴿ **قم الليل إلا قليلا** ﴾[٣٢] وقوله : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾[٣٣]

وقراءة لقوله :-

﴿ **فاقرأوا ماتيسر منه** ﴾[٣٤]

وسميت ركوعاً لقوله :-

﴿ **واركعوا مع الراكعين** ﴾[٣٥]

﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون** ﴾[٣٦]

---

(٣٢) سورة المزمل : ٢ .

(٣٣) سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٣٤) سورة المزمل : ٢٠ .

(٣٥) سورة البقرة : ٤٣ .

(٣٦) سورة المرسلات : ٤٨ .

وسجوداً لقوله :-

﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين** ﴾[٣٧]

وقوله : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾[٣٨]

وذكراً لقوله : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾[٣٩]

﴿ **لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾[٤٠] .

وأشرف أفعالها السجود ، وأشرف أذكارها القراءة ، وأول سورة أنزلت على النبى ﷺ سورة ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾[٤١] افتتحت بالقراءة ، وختمت بالسجود ، فوضعت الركعة على ذلك ، أولها قراءة وآخرها سجود .

ثم شرع له أن يرفع رأسه ، ويعتدل جالساً ، ولما كان هذا الاعتدال محفوفاً بسجودين بسجود قبله ، وسجود بعده ، فينقل من السجود إليه ، ثم منه إلى السجود الآخر ، كان له شأن فكان رسول الله ﷺ يطيل بين السجدتين بقدر السجود يتضرع إلى ربه فيه ، ويدعوه ويستغفره ، وينال رحمته ، وهدايته ورزقه وعافيته ، وله ذوق خاص ، وحال للقلب غير حال السجود وحاله ، فالعبد فى هذا القعود يتمثل جاثياً بين يدى ربه ، ملقياً نفسه بين يديه معتذراً إليه مما جناه ، راغباً إليه أن يغفر له ، ويرحمه ، مستعدياً له على نفسه الأمارة بالسوء .

وقد كان النبى ﷺ يكرر الاستغفار فى هذه الجلسة فيقول : « **رب اغفر لى ، رب اغفر لى ، رب اغفر لى** »[٤٢] ، ويكثر من الرغبة فيها إلى ربه ، فمثل أيها المصلى نفسك فيها بمنزلة غريم عليه حق ، وأنت كفيل به ، والغريم عاطل

---

(٣٧) سورة الحجر : ٩٨ .

(٣٨) سورة العلق : ١٩ .

(٣٩) سورة الجمعة : ٩ .

(٤٠) سورة المنافقون : ٩ .

(٤١) سورة الأعلى : ١ .

(٤٢) صحيح . ولفظه « اللهم اغفر لى » أخرجه البخارى (٨١٧ فتح) ، ومسلم (٤٨٤) وغيرهما .

مخادع ، وأنت مطلوب بالكفالة ، والغريم مطلوب بالحق ، فأنت تستعدى عليه لتستخرج منه ماعليه ، تتخلص من المطالبة ، والقلب شريك النفس فى الخير ، والشر ، والثواب والعقاب ، والحمد والذم .

والنفس من شأنها الإباق ، والخروج من رق العبودية وتضييع حقوق الله عز وجل ، وحقوق العباد التى قبلها ، والقلب شريكها إن قوى سلطانه منها .

شرع له الجلوس فى آخرها بين يدى ربه مثنياً عليه بما هو أهله فأفضل ما يقول العبد فى جلوسه هذه التحيات التى لا تصلح إلى لله ، ولا تليق بغيره .

ولما كان من عادة الملوك أن يحيوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع لهم ، والذل ، والثناء عليهم وطلب البقاء لهم ، والدوام لهم ، وأن يدوم ملكهم ، فمنهم من يحيا بالسجود ومنهم من يحيا بالثناء عليه .

ومنهم : من يحيا بطلب البقاء له ، والدوام .

ومنهم : من يجمع له ذلك كله فيسجد له ، ثم يثنى عليه ، ثم يدعى له بالبقاء والدوام .

وكان الملك الحق المبين الذى كل شىء هالك إلا وجهه سبحانه أولى بالتحيات كلها من جميع خلقه ، وهى له بالحقيقه وهو أهلها ولهذا فسرت التحيات بالملك ، وفسرت بالبقاء والدوام ، وحقيقتها ما ذكرته ، وهى تحيات المُلك والمَلك والمليك .

فالله سبحانه هو المتصف بجميع ذلك فهو أولى به فهو سبحانه المَلك ، وله المُلك ، فكل تحية تحيا بها ملك من سجود أو ثناء ، أو بقاء ، أو دوام فهى لله على الحقيقة ، ولهذا أتى بها مجموعة معرفة بالألف واللام إرادة للعموم ، وهى جمع تحية تحيا بها الملوك ، وهى تفعُلة من الحياة ، وأصلها تحييه على وزن مكرمة ، ثم أدغم إحدى اليائين فى الآخر فصارت تحيه . فإذا كان أصلها من الحياة والمطلوب منها لمن تحيا بها دوام الحياة كما كانوا يقولون لملوكهم :-

لك الحياة الباقية الدائمة .

وبعضهم يقول :-

عش عشرة آلاف سنة .

ومنهـا :-

أدام الله أيامك ، أو أيامه ، وأطال الله بقاءك .

ونحو ذلك مما يراد به دوام الحياة ، والملك فذلك جميعه لاينبغى إلا لله الحى القيوم الذى لايموت الذى كل مَلك سواه يموت ، وكل مُلكٍ سوى ملكه زائل .

ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع ، والتعريف يشمل ذلك كما يطلق عليه لفظ الصلاة خصوصاً وعموماً ، فكلها لله ولاتنبغى إلا له ، فالتحيات له ملكاً ، والصلوات له عبودية واستحقاقا فالتحيات لاتكون إلا لله ، والصلوات لاتنبغى إلا له .

ثم عطف عليها بالطيبات ، وهذا يتناول أمرين : الوصف والملك .

فأما الوصف : فإنه سبحانه طيب ، وكلامه طيب ، وفعله طيب ، ولايضاف إليه إلا الطيب ، ولا يصعد إليه إلا الطيب .

قال : طيبات له وصفاً وفعلاً ، وقولاً ، ونسبةً ، وكل طيب مضاف إليه ، طيب كبيته وعبده ، وروحه وناقته ، وجنته دار الطيبين فهى طيبات كلها ، وأيضاً فالكلمات الطيبات لله وحده ، فإنها تتضمن تسبيحه ، وتحميده ، وتكبيره ، وتمجيده ، والثناء عليه بالآية ، وأوصافه فهذه الكلمات الطيبات التى يثنى عليه بها ، ومعانيها له وحده لاشريك له : كسبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك .

وكسبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله اكبر .

وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، ونحو ذلك . وكل طيب عنده ، ومنه وإليه ، وهو طيب لايقبل إلا طيباً ، وهو إله الطيبين وربهم ، وهم جيرانه فى دار الطيبين ، وأطيب الكلمات بعد القرآن لاتنبغى إلا لله ، فسبحان

الله تتضمن تنزيهه عن كل نقص وعيب ، وسوء وعن خصائص المخلوقين وشبههم ، والحمد لله تتضمن إثبات كل كمال له قولاً ، وفعلاً ، ووصفاً على أتم الوجوه ، وأكملها أزلا ، وأبداً .

ولا إله إلا الله تتضمن انفراده بالإلهية ، وأن كل ما سواه باطل ، وأنه وحده الإله الحق وإن يك تأله غيره فهو بمنزلة من اتخذ بيتاً من بيوت العنكبوت ، يأوى إليه ، ويسكنه من الحر والبرد ، فهل يغنى عنه ذلك شيئا .

والله اكبر تتضمن أنه أكبر من كل شيء ، وأجل ، وأعظم ، وأعز وأقوى وأمنع ، وأقدر ، وأعلم ، وأحكم ، فهذه الكلمات الطيبات لا تصلح هى ومعانيها إلا له وحده .

ثم شرع له أن يصلى على النبى ﷺ ويقدمه على غيره لأنه أولى الخلق بها لأنه هو الذى نالت أمته به وعلى يديه كل خير .

ثم شرع أن يسلم على سائر عباد الله الصالحين ، وهم عباده الذين اصطفى – بعد الثناء ، وتقديم الحمد لله فطابق ذلك قوله ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾[٤٣] .

فيسلم المصلى على نفسه أولاً ، ثم على سائر عباد الله الصالحين وأخصهم بهذه التحية الأنبياء والملائكة ، ثم أصحاب محمد ، وأتباع الأنبياء مع عمومها كل عبد صالح فى السماء والأرض .

ثم شرع له بعد هذه التحية السلام على من يستحق السلام عليه خصوصا وعموما .

ثم شرع له أن يشهد شهادة الحق التى بنيت عليها الصلاة ، والصلاة حق من حقوقها ، ولا تنفعه إلا بقرينتها وهى الشهادة للرسول بالرسالة ، وختمت بها

(٤٣) سورة النمل : ٥٩ .

الصلاة كما فى حديث ابن مسعود « **فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك ، فإن شئت فقم وإن شئت فاجلس** »(٤٤) .

وهذا يحمل على انقضاء التشهد إذا فرغ منه حقيقة ، كما يقوله الكوفيون أو على مقاربة القضاء ، بها كما يقول أهل الحجاز وغيرهم ، وعلى التقديرين فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة . كما شرع أن تكون هى خاتمة الحياة .

« **فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** »(٤٥) .

وكذلك شرع للمتوضىء أن يختتم وضوءه بالشهادتين ، ثم لما قضى صلاته أذن له أن ينال حاجته .

---

(٤٤) صحيح . أخرجه أبوداود (٩٧٠) ، والنسائى تطبيق ١٤ ؛ والدارمى (٣٠٩/١) ، والدارقطنى (٣٥٣/١) ، والبيهقى (١٧٤/٢) فى سننه ، وقال : قد فصل فى آخر الحديث ، وجعله من قول ابن مسعود ، وهو أصح من رواية من أدرج آخره فى كلام النبى ﷺ ، والله أعلم .

تعقبه ابن التركمانى فقال : بمثل هذا لاتعلل رواية الجماعة الذين جعلوا هذا الكلام متصلاً بالحديث ، وعلى تقدير صحة السند الذى روى فيه موقوفاً ، فرواية من وقف لاتعلل بها رواية من رفع ، لأن الرفع زيادة مقبولة على ماعرف من مذاهب أهل الفقه والأصول ، فيحمل على أن ابن مسعود سمعه من النبى ﷺ فرواه كذلك مرة ، وأفتى به مرة أخرى ، وهذا أولى من جعله من كلامه ، إذ فيه تخطئة الجماعة الذين وصلوه ، ثم لو سلمنا حصول الوهم فى رواية من أدرجه لايتعين أن يكون الوهم من زهير بل ممن رواه عنه . انتهى .

(٤٥) صحيح . أخرجه أحمد (٢٣٣/٥ ، ٢٤٧) ، وأبوداود (٣١١٦) ، والحاكم (٣٥١/١ ، ٥٠٠) وصححه من حديث معاذ ، وبنحوه أخرجه أحمد (٣٩١/٥) من حديث حذيفة .

وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبى ﷺ ، فإنها من أعظم الوسائل بين يدى الدعاء ، كما فى السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال :

« **إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله ، والثناء عليه ، وليصل على رسوله** »(٤٦) .

ثم جعل الدعاء آخر الصلاة كالختم عليها .

وأذن النبى ﷺ للمصلى بعد الصلاة عليه أن يتخير من المسألة مايشاء .

ونظير هذا ماشرع لمن سمع الآذان أن يقول كما يقول المؤذن(٤٧) ، وأن يقول رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا(٤٨) وأن يسأل الله لرسوله الوسيلة ، والفضيلة ، وأن يبعثه المقام المحمود ليصل عليه(٤٩) ، ثم يسأل حاجته .

فهذه خمس سنن فى إجابة المؤذن لاينبغى الغفلة عنها .

---

(٤٦) صحيح . أخرجه أبوداود (١٤٨١) ، والترمذى (٣٤٧٥) وقال : صحيح ، والنسائى (٣/٤٤) ، الحاكم (١/٢١٨) وصححه ، وأقره الذهبى .

(٤٧) صحيح . أخرجه مالك (١/٦٧) فى الموطأ ، والبخارى (٦١١) ، ومسلم (٣٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وأخرجه ابن ماجه (٧٢٠) .

(٤٨) صحيح . أخرجه مسلم (٣٨٦) ، وأبوداود (٥٢٥) ، والترمذى (٢١٠) ، والنسائى (٢/٢٦) ، وابن ماجه (٧٢١) ، وأحمد (٥/٢٩٧ ، ٣٠٣) .

(٤٩) صحيح . أخرجه البخارى (٦١٤) ، والنسائى (٢/٢٧) ، وابن ماجه (٧٢٢) من حديث جابر ، ومسلم (٣٨٤) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص .

[فصـــل]

ســر الصــلاة وروحهــا

وسر الصلاة وروحها ولبها ، هو إقبال العبد على الله بكليتة فيها فكما أنه لاينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها ، فكذلك لاينبغي له أن يصرف وجهه عن ربه إلى غيره فيها ، بل يجعل الكعبة التى هى بيت الله قبلة وجهه وبدنه ، ورب البيت تعالى قبلة قلبه وروحه ، وعلى حسب إقبال العبد على الله فى صلاته ، يكون إقبال الله عليه ، وإذا أعرض الله عنه ، وكما تدين تدان .

والإقبال فى الصلاة على ثلاثة منازل :-

إقبال العبد على قلبه فيحفظه ويصلحه من أمراض الشهوات والوساوس ، والخطرات المبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها .

والثانى : إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كأنه يراه .

والثالث : إقباله على معانى كلام الله ، وتفاصيله وعبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع والطمأنينة وغير ذلك .

فباستكمال هذه المراتب الثلاثة يكون قد أقام الصلاة حقاً ، ويكون إقبال الله على المصلى بحسب ذلك .

فإذا انتصب قائماً فإقباله على قيومية الله وعظمته فلايتلفت يمنة ولايسرة .

وإذا كبر الله تعالى كان إقباله على كبريائه وعظمته .

وإذا سجد كان إقباله فى سجوده على تسبيحه والثناء عليه، وعلى سبحانه وجهه ، وتنزيهه عما لايليق به ، ويثنى عليه بأوصافه وكماله .

فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيمَ كان إقباله على ركنه الشديد ، وسلطانه وانتصاره لعبده ، ومنعه له منه وحفظه من عدوه .

وإذا تلى كلامه كان إقباله على معرفته فى كلامه كأنه يراه ويشاهده فى كلامه كما قال بعض السلف : تجلى لعباده فى كلامه والناس فى ذلك على أقسام ولهم فى ذلك مشارب ، وأذواق فمنهم البصير ، والأعور ، والأعمى ، والأصم ، والأعمش ، وغير ذلك فى حال التلاوة ، والصلاة ، فهو فى هذه الحال ينبغى له أن يكون مقبلاً على ذاته ، وصفاته ، وأفعاله وأمره ونهيه وأحكامه وأسمائه .

وإذا ركع كان إقباله على عظمة ربه ، وإجلاله وعزه وكبريائه ، ولهذا شرع له فى ركوعه أن يقول : « سبحان ربى العظيم » .

فإذا رفع رأسه كان إقباله على حمد ربه والثناء عليه وتمجيده وعبوديته له وتفرده بالعطاء والمنع .

فإذا سجد كان إقباله على قربه ، والدنو منه ، والخضوع له والتذلل له ، والافتقار إليه والانكسار بين يديه ، والتملق له .

فإذا رفع رأسه من السجود حتى ركبتيه ، وكان إقباله على غناه وجوده ، وكرمه وشدة حاجته إليه ، وتضرعه بين يديه أن يغفر له ويرحمه ، ويعافيه ويهديه ويرزقه .

فإذا جلس فى التشهد فله حال آخر ، وإقبال آخر شبه حال الحاج فى طواف الوداع ، واستشعر قلبه الانصراف من بين يدى ربه إلى أشغال الدنيا والعلائق ، والشواغل التى قطعه عنها الوقوف بين يدى ربه ، وقد ذاق قلبه التألم والعذاب بها قبل دخوله فى الصلاة ، فباشر قلبه بمغازٍ فيها روح القلب ، ونعيم الإقبال على الله تعالى ، وعافيته منها وانقطاعها عنه مدة الصلاة ، ثم استشعر قلبه عوده إليها بخروجه من حمى الصلاة فهو يحمل هم انقضاء الصلاة وفراغه منها ، ويقول ليتها اتصلت بيوم اللقاء .

ويعلم أنه ينصرف منْ مناجاة من كان السعادة فى مناجاته إلى مناجاة من كـان الأذى والهم والغم والنكد فى مناجاته ، ولايشعر بهذا إلا من قلبه حى معمور بذكر الله ومحبته ، والأنس به ، ومن هو عالم بما فى مناجاة الخلق ورؤيتهم ، ومخالطتهم من الأذى والنكد ، وضيق الصدر وظلمة القلب ، وفوات الحسنات ، واكتساب السيئات ، وتشتيت الذهن عن مناجاة الله .

العبد بين أمرين من ربه

ولما كان العبد بين أمرين من ربه عز وجل :

أحدهما : حكم الرب عليه فى أحواله كلها ظاهراً وباطناً ، واقتضائه القيام بعبودية حكمه ، فإذا لكل حكم عبودية تخصه أعنى الحكم الكونى القدرى .

والثانى : فعله ، يفعله العبد عبودية لربه ، وهو موجب حكمه الدينى الأمرى .

وكلا الأمرين يوحيان بتسليم النفس إلى الله سبحانه ، ولهذا اشتق له اسم الإسلام من التسليم ، فإنه لما سلم لحكم ربه الدينى الأمرى ، ولحكمه الكونى القدرى ، بقيامه بعبودية ربه فيه لاباسترساله من أى القدر فهو قائم بما يجب عليه فيه كالصبر على المصائب ، وعلى الطاعات ، ولم يسترسل معه فى الهوى ، والشهوات ، والمعاصى ، ويقول قدر على فهو استحق اسم الإسلام فقيل له : مسلم .

ولما اطمأن قلبه بذكر الله ، وكلامه ، ومحبته وعبوديته سكن إلى ربه ، وقرب منه ، وقرت به عينه فنال الأمان بإيمانه ، ونال السعادة بإحسانه ، وكان قيامه بهذين الأمرين أمراً ضرورياً له لاحياة له ، ولا فلاح ولا سعادة إلا به ولما كان مابلى به من النفس الأمارة ، والهوى المقتضى لمرادها والطباع المطالب ، والشيطان المغوى يقتضون منه إضاعة حظه من ذلك ، أو نقصانه اقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم أن شرع له الصلاة مخلفة عليه ماضاع عليه من ذلك ، رادةً عليه ما ذهب منه ، مجددة له ما ذهب من عزمه وما فقده ، وما أخلق من إيمانه ، وجعل بين كل صلاتين برزخاً من الزمان حكمة ورحمة ، ليجم(٥١) نفسه ، ويمحو بها مايكتسبه من الدرن(٥٢) ، وجعل صورتها على صورة أفعاله ، خشوعاً

---

(٥٠) أخلق : أبلى وأفنى .

(٥١) جم : الإجمام طلب الراحة والهدوء .

(٥٢) الدرن : الوسخ الظاهر على أعضاء الجسم .

وخضوعاً وانقياداً وتسليماً ، وأعطى كل جارحة من جوارحه حظها من العبودية ، وجعل ثمرتها وروحها إقباله على ربه فيها بكليته ، وجعل ثوابها وجزاءها القرب منه ، ونيل كرامته فى الدنيا والآخرة ، وجعل منزلها ومحلها الدخول عليه تبارك وتعالى ، والتزين للعرض عليه يذكره بالعرض الأكبر عليه يوم القيامة .

وكما أن الصوم ثمرته تطهير النفس ، وثمرة الزكاة تطهير المال ، وثمرة الحج وجوب المغفرة ، وثمرة الجهاد تسليم النفس إليه ، التى اشتراها سبحانه من العباد ، وجعل الجنة ثمنها ، فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله ، وإقبال الله على العبد ، وفى الإقبال على الله فى الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال ، وجميع ثمرات الأعمال فى الإقبال على الله فيها .

ولهذا لم يقل النبى ﷺ : جعلت قرة عينى فى الصوم ، ولا فى الحج ، ولا فى شيء من هذه الأعمال وإنما قال :-

« **جعلت قرة عينى فى الصلاة** »[٥٣] .

وتأمل قوله : ﴿ **وجُعلت قرة عينى فى الصلاة** ﴾ ولم يقل بالصلاة إعلاناً منه بأن عينه لاتقر إلابدخوله فى محل أنسه وأمنه ،فقرة العين بالدخول فى الشيء أتم ، وأكمل من قرة العين به قبل الدخول فيه ، ولما جاء إلى راحة القلب من تعبه ونصبه قال :

« **يا بلال أرحنا بالصلاة** »[٥٤] .

أى أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه ، ومنزله وقر فيه ، وسكن وفارق ما كان فيه من التعب والنصب .

---

(٥٣) صحيح . أخرجه أحمد (١٢٨/٢ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) ، والنسائى (٦١/٧) ، والحاكم (١٦٠/٢) وصححه ووافقه الذهبى ، وأخرجه البيهقى (٧٨/٧) فى السنن الكبرى .

(٥٤) صحيح . أخرجه أحمد (٣٦٤/٤) ، وأبوداود (٤٩٦٤)، والطبرانى (٦٢١٤) ، (٦٢١٥) فى الكبير ، والخطيب فى تاريخه (٤٤٣/١٠) .

وتأمل كيف قال : « أرحنا بالصلاة » ولم يقل : أرحنا منها كما يقول المتكلف الكاره لها الذى لايصليها إلا على إغماض ، وتكلف فهو فى عذاب مادام فيها فإذا أخرج منها وجد راحة قلبه ، ونفسه ، وذلك أن قلبه ممتلىء بغيره ، والصلاة ناطقة له عن أشغاله ، ومحبوباته الدنيوية ، فهو معذب بها حتى يخرج منها ، وذلك ظاهر فى أحواله فيها من نقرها وإلتفات قلبه إلى غير ربه ، وترك الطمأنينة والخشوع فيها ، ولكن قد علم أنه لابد له من آدائها فهو يؤديها على أنقص الوجوه قائل بلسانه ماليس فى قلبه ، ويقول بلسانه ، وقلبه حتى نصلى فنستريح من الصلاة لا بها .

فهذا لون وذاك لون آخر ، ففرق من كانت الصلاة لجوارحه قيداً ثقيلاً ، ولقلبه سجناً ضيقاً حرجاً ، ولنفسه عائقاً ، وبين من كانت الصلاة لقلبه نعيماً ، ولعينه قرة ولجوارحه راحة ، ولنفسه بستاناً ولذة .

فالأول : الصلاة سجن لنفسه ، وتقييد لجوارحه عن الورط فى مساقط المهلكات ، وقد ينال بها التكفير والثواب ، أو ينال من الرحمة بحسب عبوديته لله فيها ، وقد يعاقب على مانقص منها .

والقسم الآخر : الصلاة بستان له ، يجد فيها راحة قلبه ، وقرة عينه ، ولذة نفسه ، وراحة جوارحه ، ورياض روحه فهو فيها فى نعيم يتفكه ، وفى نعيم يتقلب يوجب له العذب الخاص والدنو[٥٥] ،والمنزلة العالية من الله عز وجل ، ويشارك الأولين فى ثوابهم ، بل يختص بأعلاه ، وينفرد دونهم بعلو المنزلة ، والقربة التى هى قدر زائد على مجرد الثواب .

---

(٥٥) الدنو : القرب .

ولهذا تعد الملوك من أرضاهم بالأجر والتقريب ، كما قال السحرة لفرعون :

﴿ **أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين** ﴾[٥٦] .

﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾[٥٧] .

فوعدهم بالأجر والقرب ، وهو علو المنزلة عنده .

فالأول : مثله مثل عبد دخل الدار ، دار الملك ، ولكن حيل بينه وبين رب الدار ، والنظر إليه بستر وحجاب ، فهو محجوب ، من وراء الستر فلذلك لم تقر عينه بالنظر إلى صاحب الدار ، لأنه محجوب بالشهوات ، وغيوم الهوى ودخان النفس ، وبخار الأماني ، فالقلب منه بذلك وبغيره عليل[٥٨] ، والنفس مكبة[٥٩] على ماتهواه ، طالبة حظها العاجل .

فلهذا لايريد أحد هؤلاء الصلاة إلا على إغماض ، وليس له فيها راحة ، ولا رهبة فهو في عذاب حتى يخرج منها إلى ما فيه قرة عينه من هواه ودنياه .

والقسم الآخر : مثله كمثل رجل دخل دار الملك ، ورفع الستر بينه وبينه ، فقرت عينه بالنظر إلى الملك ، وبقيامه في خدمته وطاعته ، وقد أتحفه الملك بأنواع التحف ، وأدناه وقربه فهو لايحب الانصراف من بين يديه ، لما يجده من لذة القرب وقرة العين ، وإقبال الملك عليه ، ولذة مناجاة الملك ، فطيب كلامه ، وتذلله بين يديه ، فهو في مزيد مناجاة ، والتحف وافدة عليه من جهة ، ومكان قد اطمأنت نفسه ، وخشع قلبه لربه وجوارحه ، فهو في سرور وراحة يعبدالله ، كأنه يراه ، وتجلى له في كلامه ، فأشد شيء عليه انصرافه من بين يديه ، والله الموفق المرشد المعين فهذه إشارة ونبذه يسيرة في ذوق الصلاة ، وسر من أسرارها وتجل من تجلياتها .

---

(٥٦) سورة الشعراء : ٤١ .

(٥٧) سورة الأعراف : ١١٤ .

(٥٨) عليل : مريض .

(٥٩) مكبة : منهكة ، ومشغوله بلهف .

[فصـــل]

ذوق أهــــل الســـماع

فنحن نناشد أهل السماع بالله الذى لا إله إلا هو هل يجدون فى سماعهم مثل هذا الذوق أو شيء منه بل نناشدهم الله هل يدعهم السماع يجدون بعض هذا الذوق فى صلاتهم أو جزءاً يسيراً منه .

بل هل نشقوا من هذا الذوق رائحة ، أو شموا منه شمة قط ، ونحن نحلف ، عنهم أن ذوقهم فى صلاتهم وسماعهم ضد هذا الذوق ، ومشربهم ضد هذا المشرب .

ولولا خشية الإطالة لذكرنا نبذة من ذوقهم فى سماعهم تدل على ماورائها . ولايخفى على من له أدنى عقل ، وحياة قلب . الفرق بين ذوق الآيات ، وذوق الأبيات ، وبين فرق القيام بين يدى رب العالمين ، والقيام بين يدى المغنين ، وبين ذوق اللذة ، والنعيم بمعانى ذكر الله ، والتلذذ بكلامه ، وذوق معانى الغناء ، والتطريب الذى هو رقية الزنا ، وقرآن الشيطان[٦٠] ، والتلذذ بمضمونها فى المجتمع .

والله [لايجتمع] الأمران فى قلبٍ إلا وطرد أحدهما الآخر ، ولا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله - عز وجل - عند رجلٍ واحد أبداً ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(٦٠) انظر كلام المصنف فى إغاثة اللهفان (٢٨٢/١) .

[فصـــل]

مخالفـة المتأخرين للسلف المتقدمـين

فمرتجى الأذواق الصحيحة المستقيمة إلى قلوب قد انحرفت أشد الانحراف عن هدى نبيها ﷺ وتركت ماعليه هو وأصحابه والسلف الصالح فإنهم كانوا يجدون الأذواق الصحيحة المتصلة بالله عز وجل فى الأعمال : الصلاة المشروعه ، وفى قراءة القرآن ، وتدبره واستماعه ، وأجر ذلك ، فصار ذوق المتأخرين إلا من عصمه الله فى السماع ، والدُف ، والمواصيل ، والأغانى المطربة من الصور الحسان ، والرقص ، والضجيج ، وارتفاع الأصوات ، وتعطيل مايحبه الله ، ويرضاه من عبادته المخالفة لهوى النفوس . فشتان بين ذوق المطرودين ، وذوق العابدين الخاشعين ، فسبحانه الممد لهؤلاء ، ولهؤلاء من عطائه ، ومحب سماع كلام الرحمن فى قلب رجل أبداً ، فأين من يطرب على سماع الغناء من حل من يجد لذة السماع وروح الإيمان إذا سمع القرآن ، فهل يستوى عند الله وملائكته ، ورسله ، والصادقين من عباده سماع هذا ، وسماع هذا ، وذوق هذا ، وذوق هذا ؟!! فأهل سماع الغناء عبيد نفوسهم الشهوانية ، يعملون السماع طلباً للذة النفس ونيلاً لحظها الباطل ، فمن لم يميز بين هذين السماعين ، والذوقين فليسأل ربه بصدق ، رغبة إليه أن يحيى قلبه الميت ، وأن يجعل له نوراً يستضىء به فى ظلمات جهله ، وأن يجعل له فرقاً فيفرق به بين الحق والباطل .

[فصــــل]

من عواقــب سماع الغنــاء

وفى السماع نكتة حقيقية أصلية ، ويجدونها بعد انقضائه وهى أنه قد علم الذى يقول له أنه ما وجد صادق فى السماع الشعرى وجداً ، وتحرك به إلا وجد بهذا إنقضائه ، ومفارقة المجلس قبضاً على قلبه ، ونوع استيحاش ، وأحس بعده انقطاعًا وظلمة ، ولا يتفطن لهذا إلا من قلبه مغمور فى السماع وذوقه الباطل فهو عاقل عن استخراج آلامه التى طرقته فيه ، وعن أسباب فساد القلب منهم ، ولو وزنه بالميزان العدل لعلم من أين أتى فاسمع الآن السبب الذى لأجله نشأ منه هذا القبض ، وهذه الوحشة ، والبعد ، لما كان السماع الشعرى أعلا أحواله أن يكون ممتزجاً بحق وباطل ، وتركاً من شهوة وشبهة ، وأحسن أحوال صاحبه أن تأخذ الروح حظها المحمود منه ، ممتزجاً بحظ النفس ، والشيطان والهوى فهو غير صادق ، ولاخلاص فامتزج نصيب الصادق فيه من الرحمن بنصيب الشيطان ، واختلط حظ القلب بحظ النفس هذا أحسن أحواله ، فإنه مؤسس على حظ النفس ، والشيطان وهو فيه بذاته وهو نصيبه من الرحمن فهو فيه بالعرض ، ولم يوضع عليه ولا أسس عليه فاختلط فى وادى القلب الماء اليسر الصافى بالماء الكثير الكدر ، وغلب الخبيث فيه الطيب ، أو تجاوز والتفن الوردات الرحمانية ، والوردات الشيطانية .

والمستمع الصادق لقلبه صدقه ، وظهور أحكام القلب فيه يخفى عليه ذلك الوقت أثر الكدر فلا يشعر به حينئذ إلا سماع الروح به ، وغيبتها عن سوى مطلوبه ، فلما أفاق من سكره ، وفارق لذة السماع وطيبه ، وجد اللوث والكون الذى هو حظ النفس ، والشيطان ، وأثر جثوم الشيطان على قلبه فأثر فيه ذلك الأثر قبضاً ، مستدركه هو بحياة قلبه يوجب له الإحساس بهذا ، أو لايدرى من أين أتى ، وهذا أوضح الشاهد لنظائر وأشباه منها .

لذا إذا اشتغل الرجل قلبه اشتغالاً تماماً بمشاهدة محبوب أورد به مخوف ، أو لذة ملكت عليه حسه وقلبه إذا أصابه فى تلك ضرب ، أو لسع أو سبب مؤلم ، فإنه لايكاد يشعر به فإذا أدار فيه تلك الحال وجد ألم ذلك حتى كأنه إنما أصاب تلك الساعة فإنه كان فى مانع يمنعه من الإحساس بالألم فلما زال المانع أحس بالألم .

ولهذا كان بعض الصادقين إذا فارق السماع بادر إلى التوبة والاستغفار وأخذ فى أسباب التداوى التى يدفع موجب أسباب القبض والوحشة ، ولهذا القدر إنما يعرفه أولوا الفقه فى الظن من أصحاب الفطن المعتنين بتكميل نفوسهم ، ومعرفة أدوائها وأدويتها .

ولا ريب أن الصادق فى سماع الأبيات قد يجد ذوقاً صحيحياً إيمانياً ، ولكن ذلك بمنزلة من شرب عسلاً فى إناء نجس .

والنفوس الصادقة ذوات الهمم العالية رفعت أنفسها عن الشراب فى ذلك الإناء تقذراً له ، ففرت منه لاستقامتها وطهارتها ، وعلو همتها فهى لاتشرب ذلك الشراب إلا فى إناء يناسبه فإذا لم يجد إناء يناسبه صان الشرب عن وضعه فى ذلك الإناء ، وانتظرت أن يليق به ، وغيرها من النفوس تضع ذلك الشراب فى أى اناء انفق لها من عظام ميتة أو جلد كلب أو خنزير أو إناء خمر طالما ماشرب به الخمر أو لايستحى الغراب أن يشرب أطيب شراب وألذه فى هذه الآنية .

أو لو جرد الصادق ذلك فى حال سماعه لوجد ذوقه من ذلك ولكن حلاوة الغسل تغيب عنه نتنه وقذره وأثر قبحه على قلبه فى تلك الحال فدعت مفارقته موجب له ذلك وحشةً وقبضاً هذا إذا كان صادقاً فى حاله مع الله وكان سماعه لله وبالله .

وأما إن كان كاذباً كان سماعه للذة نفسه وحظه فهو يشرب النجسات فى الآنية القذرات ولايحسن بشيء مما ذكرناه لاستيلاء الهوى والنفس والشيطان عليه .

وأما صاحب السماع القرآنى الذى تذوقه ، وشرب منه ، فهو يشرب الشراب الطهور ، الطيب النظيف فى أنظف إناءٍ ، وأطيبه ، وأطهره .

فالآنية ثلاثة : نظيف ، ونجس ، ومختلط .

والشرابات ثلاثة : طاهر ونجس وممزوج .

والقلوب ثلاثة : صحيح سليم فشرابه الشراب الطهور فى الإناء النظيف ، وسقيم مريض فشرابه الشراب النجس فى الإناء القذر ، وقلب فيه مادتان .

فهـرس

رقم الإيداع بدار الكتب   ٨٩٢١ / ٨٩

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN